استراحة المسافر (٨)

* **مواعيد عرقوب**: عرقوب رجل من العماليق أتاه أخٌ له، فقال له عرقوب: إذا طلعت هذه النخلة فلك طَلْعُها، فلما أطلعت أتاه لِلْعِدة، فقال: دعها حتى تصير بلحاً، فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير زَهْوَاً. فلما زَهَتْ قالَ: دعها حتى تصير رُطباً. فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تَمْراً. فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل، فجذها ولم يُعط أخاه شيئاً، فصار مثلاً في الخُلْف وفيه قول الأشجعي:

وعَدْت وكان الخُلْفُ منك سَجِيَّةً مواعيدَ عُرْقُوبٍ أخاه بيَثْرِبِ

* قال أحمق لابنه، وكان أحمق أيضاً: أي يوم صلّينا الجمعة في مسجد الرّصافة، فقال: لقد نسيت، ولكني أظنّه يوم الثلاثاء، قال: صدقت كذا كان.
* اشترى رجلٌ ثلاثة أرطال لحماً، وقال لامرأته: اطبخيه وخرج إلى مشغله. فطبخته المرأة وأكلته. فلمّا جاء زوجها، قال: هاتي ما طبختِ. قالت له: أكله القط. فأخذ الرجل القط ووزنه، فإذا فيه ثلاثة أرطال، فقال لها: هذا وزن القط، فأين اللحم؟ أو هذا وزن اللحم، فأين القط.
* قيل: إن امرأة عجوزاً مرضت، فأتاها ابنها بطبيبٍ، فرآها الطبيب متزيّنة بأثواب مصبوغةٍ، فعرف ما بها، فقال الطبيب: ما أحوجَها إلى زوج! فقال الابن: وما حاجةُ العجائز للأزواج! فقالت الأم العجوز: ويحك! الطبيبُ أعلم منك على كلّ حال.

* نزل بصريٌّ على مَدَني وكان صديقاً له، فأطال المُقام عنده، فقال المدني لامرأته: إذا كان غداً فإني أقول لضيفنا: كم ذراعاً تقفز؟ ثم أقفز، فإذا قفز هو فأغلقي الباب! فلما كان من الغد، قال له المدني: كيف قَفْزُكَ ياأبا فلان؟ قال: جيّد! فعرض عليه أن يقفز معه، فأجابه. فوثبَ المدنيُّ من داره إلى الخارج أَذْرُعاً، وقال للضيف: ثِبْ أنت! فوثبَ الضيف إلى داخل الدار ذراعين. فقال له: وثبتُ أنا إلى خارج الدار أذرعاً ووثبتَ أنت إلى داخلها ذراعين؟! فقال الضيف: ذراعان في الدار خيرٌ من أذرع إلى برَّا!!

الرحالة العرب

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]

أخي الحبيب لقد تحدثنا عن المسافرين في طلب العلم، والمثابرين في تحصيل المعرفة، والمجاهدين في نشر العلم، وحفظ السنة، وهداية الأمة، وماذا عانوا من التعب والمشقة ووعثاء السفر وقطع الفيافي وعَبور المفاوز والرحيل إلى البلدان، والسفر إلى كل مكان، ولم يكن ذلك في طائرات فخمة، ولا سيارات فارهة، ولا قطارات عملاقة، وإنما كان أكثره مشياً على الأقدام. ذكرنا من النماذج أروعها ومن الأخبار أعجبها، ومن القصص أمتعها، وإلى جانب هؤلاء الرحالة في سبيل العلم، والعلم وحده، كان هنالك رجالٌ آخرون قاموا برحلات عجيبة، وجولات غريبة إما للدعوة في سبيل الله، وإما للعلم والاكتشاف، وإما للتجارة، وإما لطلب المعيشة، وإما لغرض السياحة البحتة.

لقد قام أجدادنا بدور كبير في عالم الرحلات وفتحوا الأرض وطافوا الدنيا لنشر الإسلام ورفع الظُّلْمة عن الأنام فوصلوا إلى الهند والصين والمحيط الأطلسي وجبال البرانس، وتركستان وجبال القوقاز، وأنحاء إفريقيّة، إلى غير ذلك من أنحاء الدنيا وجابوا البحار ودخلوا الأندلس واقتحموا جبال الدنيا وتوغلوا في وديانها وقراها، وتصايحوا بلغات الأمم، ورفعوا أذانهم على منارات الدنيا، ومرَّغوا جباههم سجداً لله تعالى في أقطار المعمورة وفي أخبار رحلاتهم البحرية ما يدل على أنهم

طافوا دول شواطىء إفريقية الشرقية، وكادوا لا يتركون جزيرة في المحيط الهادي إلاَّ وصلوها، ونزلوا ببعض الجزائر المنتشرة ببحر الروم وبعض جزائر المحيط الأطلسي. وكما اقتحموا البحار فقد اقتحموا القفار، وجابوا الأرض وتوغلوا في مجاهلها، ووضعوا أقدامهم في أوروبا ومرتفعاتها الشرقية والجنوبية وتوغلوا فيها، كما توغلوا في آسيا وصحاريها ومرتفعاتها الوسطى. وكما أن العرب قد أوصلوا الإسلام إلى بعض الأقاليم عن طريق السيف والجهاد، فإن التجار والرحالة قد نشروا الإسلام بأخلاقهم وتعاملهم في أقاليم لم يصل إليها الفاتحون في آسيا كالصين وفي إفريقية كالسودان وعلى طول شاطئها الشرقي وكثيراً ما كانت تطلب هذه الأقاليم الجديدة بعثات دينية من بغداد تعلم الناس فروض الإسلام وما شرعه الله للناس.

فنحن الناس كل الناس في البرِّ وفي البحرِ
أخذنا جزية الخلق من الصـــين إلى مصـرِ
إلى طنجة بـل في كل أرض خَيْـلُنَا تسري
وإنْ ضاق بنـا قُطْـرٌ نَـزُلْ عنه إلى قُـطْـرِ
لنا الدنيا بمـا فيهـا من الإسـلام والكفـرِ

ولكن أخي المسافر إذا كان هذا هو طموح الأجداد، وتلك هي همة الآباء والأسلاف مع قلة الإمكانات، وشظف العيش، وكثرة الأخطار، وعدم توفر وسائل النقل المريحة السريعة فما دورنا نحن وماذا قدمنا نحن وبماذا نفخر نحن العرب خصوصاً والمسلمين عموماً؟ ما جهدنا في نشر الإسلام وتعريف الدنيا به، لاسيما تلك الأقاليم والبلدان التي تعيش

التخبط والظلام والهمجية. ما اكتشافاتنا التي نباهي بها العالم اليوم؟ ما رحلاتنا في أنحاء الدنيا لنشر الإسلام وتعلّم العلم وأخذ تجارب الأمم؟ ما تعاملاتنا وأخلاقياتنا التي تؤثر فيمن يرانا وتجذبه إلينا وتدعوه تلقائياً إلى ديننا وهدي ربنا وسنة نبينا ﷺ.

أخي المسافر، إليك هذه القصة العجيبة لأحد المسلمين حتى تعلم أن بإمكان المسلم أن ينفع وأن يهدي بإذن الله تعالى في أي بلد يقيم فيه، وأن يسخر علمه وتعلمه لخدمة مبدئه ومنهجه.

إن المسلم ينبغي أن يكون مثل الغيث إذا حلَّ بأرض اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

أرأيت أرض البلغار هل تدري أن الإسلام انتشر فيها وعمَّ نوره كثيراً من أهلها بسبب رجل واحد بعد الله تعالى وهو طبيب مسلم، سافر هذا الطبيب إلى بلاد البلغار وكان الملك وزوجته مريضين وقد يُئس من شفائهما، فَعُرف هذا الطبيب ودعي لعلاج الملك وزوجته، فكان شرطه لعلاجهما أن يدخلا الإسلام إن شُفيا من مرضهما، فأجاباه إلى شرطه، ووافقا عليه، فعالجهما وشفيا بأمر الله تعالى فدخلا في دين الإسلام، وأسلم معهما أهل تلك البلاد!!

قال ﷺ: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»** فكيف بمن يهتدي على يده أناس وأمم.

وقد رأيت لزاماً عليَّ، وأنا أحدِّث أخي المسافر عن السفر وأخبار المسافرين وأشعارهم وطرائفهم وعجائبهم، رأيت أن لا أغفل خبراً من أهم أخبار المسافرين وحدثاً من أعجب أحداث السفر وأروعها وأمتعها.

إنه خبر الرحالة العرب، فأصِغ السمع إلى النبأ الغريب والحدث العجيب لأناس لم يكونوا يمتلكون من الوسائل الحديثة ما يمتلكه الناس اليوم ولم يعرفوا ما عرفه العالم اليوم من الحضارة ووسائل التنقل الحديثة بحيث أصبح بمقدور الإنسان أن يذرع العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في أيام معدودة، وعبر وسائل مريحة في جوٍّ من الأمن والأمان ورغد العيش وتوفر أسباب المعيشة. أما أولئك القدماء فقد كانوا يعانون أشد المعاناة ويتعرضون لأشق العذاب ويغامرون في أشد الأهوال والأخطار. ولكنه علو الهمة، وقوة العزيمة، ومصارعة الأخطار، ومحاولة اكتشاف الأقطار، وكشف الأسرار، واستقصاء الأخبار، فعبروا الأنهار والبحار وتكبدوا وهج الشمس ولوعة البرد وهم يقطعون الفيافي والقفار، ولكن عند الصباح يحمد القوم السرى، وإذا عرف المقصود هان لأجله المجهود.

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

أخي المسافر: أسأل الله تعالى أن يوفقك في أسفارك وأن يجعلك مباركاً أينما كنت وأن يجعلك ممن يدعو إلى الله على بصيرة.

من رحلات المسلمين العجيبة

هناك عددٌ من الرحالة المسلمين الذين طافوا عدداً كبيراً من المدن والأقاليم قد سجّلوا رحلاتهم ودونوا ملاحظاتهم ولم يكن تسجيلاً تقريرياً مباشراً بل كانوا يصوغون رحلاتهم ومشاهداتهم صياغة أدبية جميلة. ولقد كان لتلك الرحلات أثر كبير خاصة في القرون المتأخرة حيث اعتبرت رحلاتهم ومغامراتهم وسفراتهم من أهم المراجع التاريخية والاجتماعية والسياسية. ومن أولئك الرحالة المسلمين:

١ ـ **أسامة بن منقذ:** أحد أبطال المعارك الصليبية كان شجاعاً فارساً أديباً بارعاً شاعراً مفلقاً، وقد عاش في القرن السادس للهجرة، وكان آباؤه أمراء لقلعة شيزر، وقد نازلوا الصليبيين كثيراً ولهم معهم وقائع عديدة وقد سافر أسامة إلى مصر وأقام بها مدة من الزمان، وطاف ببلاد العرب والجزيرة، وكانت لديه موهبة قصصية وقلم سيال وبيان رائق، فسجل الحوادث التي مر بها ورآها في رحلاته وله كتاب في ذلك اسمه «الاعتبار»، وهو من أجمل وأطرف ما كتب عن الرحلات.

٢ ـ **عبداللطيف البغدادي**: وهو عالم كبير واسع الثقافة، درس الفلسفة والطب وعلوم الدين واللغة، وترك مؤلفات كثيرة في كل فن وقد ولد عام ٥٥٧هـ، وطاف بالشام ومصر وعدد كبير من البلدان وله كتاب يعتبر طُرْفة من طرف كتب الرحلات وهو «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر».

ولما كان الحج أحد أركان الإسلام فإن المسلمين كانوا يتجشمون

راضين مسرورين كل مشقة في سبيل أداء هذه الفريضة وزيارة مسجد الرسول ﷺ في المدينة وكان من أولئك الرحالة الذين رحلوا للحج من يجعل سفره ذلك فرصة لتسجيل رحلته الحبيبة إلى قلبه ويطيل السفر ويمر بالمدن والأقاليم والهجر، ويصف كل ذلك وصفاً عجيباً دقيقاً منذ أن وضع قدمه الأولى في طريق السفر إلى أن يعود إلى موطنه، ومن تلك الرحلات:

٣ ـ **رحلة ابن جبير:** هو أبوالحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الأندلسي، الشاطبي، البلنسي، ولد في بلنسية عام ٥٣٩هـ، وتوفي بالإسكندرية عام ٦١٤هـ، وكان من علماء الأندلس في الفقه والحديث، وكانت له مشاركة في الآداب، ويكاد يجمع المؤرخون والكتَّاب والأدباء أن هذه الرحلة هي أجمل وأفضل ما كتب عن الرحلات وهي رحلة رائعة حقاً تتميز بمعلوماتها الدقيقة والطريفة وتتميز بأسلوبها الأدبي الشيّق.

ورحلة ابن جبير تقصّ ما شاهده في طريقه إلى حجه وعودته منه.

وإليك مقتطفات من رحلة ابن جبير: «وصف دمشق».

إليك هذا المقطع من رحلة ابن جبير وهو يصف فيه دمشق لترى أسلوبه الرائع وقلمه الأخّاذ وعباراته الناصعة وقد نسي ابن جبير نفسه وهو يتكلم عن دمشق فقد هام بها قلبه وأحبها فؤاده فخط بالحبر قليلاً مما في الصدر يقول:

«جنة المشرق، ومطلعُ حُسنه المُؤنِق المُشْرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقْرَيناها، وعروس المدن التي اجْتَلَيْنَاها، قد تحلّت بأزاهير الرياحين، وتجلّت في حُلَل سندسيّة من البساتين، وحلّت من

موضوع الحسن بالمكان المَكين، وتزَيّنت في منَصّتها أجمل تزيين، وتشرّفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه، صلى الله عليهما منها إلى ربوة ذات قَرار ومعين، ظل ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مَذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياض يُحيي النفوس نسيمها العليل، تتبرّج لناظريها بمُجْتَلى صقيل، وتناديهم: هلموا إلى مُعرَّس للحسن ومَقِيل، قد سئمت أرضُها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ، فتكاد تناديك بها الصم الصِّلاب: ارْكُضْ برجلكَ هذا مُغْتسَلٌ باردٌ وشراب، قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتنافَ الكمامة للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرتُه اليانعة قَيْد النظر.

أهوال البحر:

وهذا مقطع آخر نأخذ منه شدة المعاناة والأخطار التي تعرض لها ابن جبير وكان يتعرض لها كل المسافرين في ذلك الوقت فالحمد لله الذي أنعم علينا بهذه النعم العظيمة من وسائل التنقل ومراكب السفر.

يقول ابن جبير: «وفي ليلة الأربعاء بعدها من أولها عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر تُرسِله الرّياح بقوة، كأنه شآبيب سهام، فعظم الخطب واشتد الكرب وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة. فبقينا على تلك الحال الليل كله، واليأس قد بلغ منا مبلغه، وارتجينا مع الصباح فُرْجة تخفّف عنا بعض ما نزل بنا، فجاء النهار، وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذي القعدة، بما هو أشدُّ هولاً وأعظم كرباً، وزاد البحر اهتياجاً وارْبدّتِ الآفاقُ سواداً، واستَشرَت الرّيح والمطر

عصوفاً، حتى لم يثبت معها شراع. فلُجىء إلى استعمال الشُّرُع الصّغار. فأخذت الريح أحدها ومزّقَته وكسرت الخشبة التي ترتبط الشُّرُع فيها، وهي المعروفة عندهم بالقَرِيّة. فحينئذٍ تمكّن اليأس من النفوس وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء إلى الله عز وجل. وأقمنا على تلك الحال النهار كله، فلما جن الليل فترت الحال بعض الفُتور، وسرنا في هذه الحال كلها بريح الصواري سيراً سريعاً.

وفي ذلك اليوم حاذينا برّ جزيرة صقلية. وبتنا تلك الليلة، التي هي ليلة الخميس التالية لليوم المذكور، متردّدين بين الرجاء واليأس، فلما أسفَرَ الصّبحُ نشرَ الله رحمته، وأقشعَت السحابُ وطاب الهواء وأضاءت الشمس وأخذ في السكون البحرُ، فاستبشر الناسُ وعاد الأنسُ وذهب اليأس، والحمد لله الذي أرانا عظيم قدرته، ثم تلافى بجميل رحمته ولطيف رأفته، حمداً يكون كفاءً لمنّتهِ ونعمته».

الملك العادل:

وابن جبير هو ممن أُعجب بالسلطان المسلم والمجاهد الصالح صلاح الدين الأيوبي ولذلك أشاد به في مواضع كثيرة من كتابه ومن ذلك قوله:

«ومن مفاخر هذا السلطان المُزْلِفة من الله تعالى، وآثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا: إزالته رسم المكس المضروب وظيفةً على الحجاج مدة دولة العُبَيديين. فكان الحُجاج يلاقون من الضغط في استيدائها عَنَتاً مُجحِفاً ويُسامون فيها خُطّةَ خَسْف باهظة. وربّما ورد منهم من لا فضْل لديه على نفقته أو لا نفقة عنده فيُلْزَم أداء الضريبة المعلومة، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر

ديناراً مؤمنيّة على كل رأس، ويعجز عن ذلك، فيُتناوَلُ بأليم العذاب بعَيْذاب ـ اسم مدينة ـ فكانت كاسمها مفتوحة العين.

وربما اختُرِع له من أنواع العذاب التعليق من الأنثَيَين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة، نعوذ بالله من سوء قَدَره. وكان بجُدّة أمثال هذا التنكيل وأضعافه لمن لم يؤدّ مكسه بعيذاب ووصل اسمه غير معلّم عليه علامة الأداء. فمحا هذا السلطانُ هذا الرسم اللعين ودفع عِوَضاً منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها، وعيّن مَجْبىً موضعٌ معيّن بأسره لذلك، وتكفّل بتوصيل جميع ذلك إلى الحجاز، لأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة، عمّرهما الله، فعوّض من ذلك أجمل عوض، وسهّل السبيل للحجاج، وكانت في حيّز الانقطاع وعدم الاستطلاع، وكفى الله المؤمنين على يدي السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطباً أليماً. فترتب الشكر له على كل من يعتقد من الناس أن حج البيت الحرام إحدى القواعد الخمس من الإسلام، حتى يعم جميع الآفاق ويوجب الدُّعاء له في كل صُقْع من الأصْقاع وبقع من البقاع، والله من وراء مجازاة المحسنين، وهو، جلّت قدرته، لا يضيع أجر من أحسن عملاً، إلى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها ضرائب على كل ما يُباع ويُشترى مما دقّ أو جلّ، حتى كان يؤدّي على شرب ماء النيل المكس فضلاً عمّا سواه. فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها وبسط العدل ونشر الأمن.

ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسّبُل أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرّفاً فيما يعنيهم، ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم. على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والإسكندرية حسبما تقدّم ذكره».

٤ ـ رحلة ابن بطوطة: أعظم رحَّالة في تاريخ العرب أبوعبدالله محمد بن محمد الطَّنجي، ولد في طنجة عام ٧٠٣هـ أعجوبة الأعاجيب، وغريبة الغرائب، ورائعة الروائع. إنها الرحلة التي أشبه ما تكون بالخيال فإن الإنسان لا يكاد يصدِّق أن بإمكان بشر أن يصل إلى ما وصل إليه ابن بطوطة وما حقّقه في تلك الفترة الزمنية العتيقة، ولكنها الهمة التي تناطح السحاب. ابن بطوطة له عدة رحلات ولكن انطلاقتها وبدايتها كانت رحلته من بلاد الأندلس لأداء فريضة الحج.

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات، زار في الأولى بلاد المشرق الإسلامي بما فيها الهند والصين، وزار في الثانية بلاد الأندلس، وفي الثالثة بلاد السودان الغربي، وكان قد غادر طنجة مسقط رأسه في يوم الخميس الثاني من رجب عام ٧٢٥هـ معتمداً حج بيت الله الحرام، وهو لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، فمر بالجزائر وتونس وليبيا ووصل مصر حيث تجول في مدنها، وذهب إلى الشام، وبعد أن طاف بلدانها ذهب إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج، وسافر منها إلى العراق وطوف فيه وألمّ ببعض المدن في غربي إيران ثم عاد إلى الحجاز وأدى فريضة الحج مرة ثانية. ورحل من مكة إلى اليمن وإلى شرق إفريقية وعاد إلى ظفار وعمان والبحرين ثم إلى مكة ليحج للمرة الثالثة ويعود إلى مصر ثم الشام وإلى جزيرة القرم والقوقاز والبلغار وإلى القسطنطينية، ومنها رحل إلى خوارزم وبخارى وأفغانستان، ثم دخل الهند سنة ٧٣٤هـ ومنها ذهب إلى الصين عن طريق الملايو وعاد عن طريق سومطرة ونزل في ظفار، واتجه إلى بلاد العجم فالعراق فالشام فمصر فالحجاز ليحج للمرة الرابعة، وليعود بعدها

إلى مراكش عن طريق مصر فليبيا فتونس فالجزائر، ووصل مدينة فاس في يوم الجمعة أواخر شعبان من عام ٧٥٠هـ، ثم يبدأ رحلته الثانية، وهي رحلة قصيرة زار خلالها بلاد الأندلس ثم عاد إلى مراكش ليصحب أباعنان إلى فاس، ويودعه منها ليقوم برحلته الثالثة في أواخر عام ٧٥٢هـ، ويبقى في مدينة سجلماسة بضعة أشهر، ليبدأ الرحلة في غرة المحرم سنة ٧٥٣هـ إلى بلاد السودان الغربي ويتوغل في مجاهل إفريقية الوسطى ويعود بعدها في عام ٧٥٤هـ ليستظل رعاية السلطان في بلاده بفاس حيث يمضي بقية حياته حتى عام ٧٧٦هـ.

مقتطفات من رحلة ابن بطوطة:

أهل مكة: يقول ابن بطوطة عن أهل مكة:

«ولأهل مكة الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء؛ ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم، وأكثر المساكين المنقطعن يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله يتبعه المساكين فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له، ولا يردهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطي ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر.

وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس، وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة، ويستعملون الطيب كثيراً ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر، ونساء مكة ذوات صلاح وعفاف، ولأهل

مكة عوائد حسنة وغيرها».

زهران وغامد :

ويقول عن القرى الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد بعد أن ذكر أنهم يجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز فترخص الأسعار بمكة ويرغد عيش أهلها، فيقول:

«وبلاد السرو التي يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة كثيرة الأعناب وافرة الغلات، وأهلها فصحاء الألسن، لهم صدق نية، وحسن اعتقاد، وهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها، داعين بأدعية تتصدع لرقتها القلوب، وتدمع العيون الجامدة، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم مؤمِّنين على أدعيتهم، ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم، ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك، وهم شجعان أنجاد، ولباسهم الجلود، وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم؛ ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم، وذكر أن النبي ﷺ ذكرهم وأثنى عليهم خيراً، وقال: علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء، وكفاهم شرفاً دخولهم في عموم قوله ﷺ: «**الإيمان يمان والحكمة يمانية**» وذكر أن عبدالله بن عمر، رضي الله عنهما، كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل في جملتهم تبركاً بدعائهم، وشأنهم عجيب كله، وقد جاء في أثر: زاحموهم في الطواف، فإن الرحمة تنصب عليهم صباً».

نهاية الرحلة:

يقول ابن بطوطة:

ووصلت إلى مدينة تازي، وبها عرفت خبر موت والدتي بالوباء، رحمها الله تعالى، ثم سافرت عن تازي فوصلت يوم الجمعة، في أواخر شهر شعبان المكرم من خمسين وسبعمائة، إلى حضرة فاس، فمثلت بين يدي مولانا الأعظم الإمام الأكرم أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبي عنان.

وألقيت عصا التسيار ببلاده الشريفة، بعد أن تحققت بفضل الإنصاف أنها أحسن البلدان لأن الفواكه بها متيسرة والمياه والأقوات غير متعذرة، وقل إقليم يجمع ذلك كله، ولقد أحسن من قال:

الغـرب أحسـن أرض ولـي دليـل عليـه
البـدر يقـرب منـه، والشمـس تسعـى إليـه

٥ ـ ابن خلدون:

وليُّ الدين عبدالرحمن بن محمد، ولد بتونس، علم من الأعلام، أشهر من أن يترجم له رائد علم الاجتماع وصاحب كتاب المقدمة الذي هزّ العالم واعترف بفضله الغرب والشرق. لقد كان ابن خلدون عالماً، مؤرخاً، أديباً، شاعراً، شجاعاً مقداماً، وهو يعتبر من كبار الرحالة المسلمين وقد قضى فترة كبيرة من حياته في السفر والترحال، فسافر إلى الأندلس، وإفريقية الشمالية، وتسلم بها عدة مناصب مهمة، ثم سافر إلى مصر، فالإسكندرية، فالقاهرة، ثم ذهب إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى القاهرة، وقد تنقل في عدد من البلدان والأقاليم.

وقد كانت لابن خلدون صلة قوية وصحبة بأحد السلاطين اسمه أبوعنان في مدينة فاس بالمغرب، ثم تكدّرت تلك الصحبة فيما بعد وساءت العلاقة وقام أبوعنان بسجن ابن خلدون لاتهامه بالمؤامرة عليه، وقد خاطبه ابن خلدون بقصيدة حوالي مائتي بيت منها:

على أي حالٍ لليالي أعاتبُ ... وأي صروف للزمان أغالبُ
كفى حَزَناً أني على القرب نازح ... وأني على دعوى شهوديَ غائب
وأني على حكم الحوادث نازلٌ ... تسالمني طوراً وطوراً تحارب

ومنها في حنينه إلى أهله:

سلوتهمُ إلاَّ ادكار معاهدٍ ... لها في الليالي الغابرات غرائبُ
وأن نسيم الريح منهم يشوقني ... إليهم وتصبيني البروق اللواغبُ

ولما توفي أبوعنان تولى ابنه بعده إلاَّ أن وزيره الحسن بن عمر استطاع أن يستولى على الحكم وبادر بإخراج ابن خلدون من السجن.

وقبل أن نغادر الحديث عن هذا العلامة الشهير نختم الحديث عنه ببعض أبياته الجميلة في الحنين إلى الأوطان والتشوق للخلان والبكاء على الأطلال:

حي المعاهد كانت قبل تحييني ... بواكف الدمع يرويها ويظميني
إن الأولى نزحتْ داري ودارُهُمُ ... تحملوا القلب في آثارهم دوني
وقفت أنْشُد صبراً ضاع بعدهُمُ ... فيهم وأسأل رسماً لا يناجيني
أُمثِّل الربع من شوقٍ فألثمهُ ... وكيف والفكر يدنيه ويقصيني
ونبّه الوجد مني كل لؤلؤة ... مازال قلبي عليها غير مأمون
سقت جفوني مغاني الربع بعدهُمُ ... فالدمع وقفٌ على أطلاله الجون

قد كان للقلب عن داعي الهوى شغل ... لو أن قلبي إلى السلوان يدعوني
أحبابنا هل لعهد الوصل مُذَكَّرٌ ... منكم وهل نسمة عنكم تحييني
مالي وللطيف لا يعتاد زائره ... وللنسيم عليلاً لا يداويني
يا أهل نجدٍ وما نجدٌ وساكنها ... حُسْناً سوى جنة الفردوس والعين
أعندكم أنني ما مر ذكركم ... إلا انثنيت كأن الراح تثنيني
يا نازحاً والمنى تدنيه من خلدي ... حتى لأحسبه قرباً يناجيني

رحلات جغرافية

وكان من الرحالة المسلمين من أنشأ رحلته على أساس جغرافي لمعرفة البلدان والأقاليم وجغرافيتها، ومن أبرز الرحالة الجغرافيين:

١ـ **ابن حوقل**: وهو من جغرافيي القرن الرابع الهجري، وقد شغف بعلم الجغرافيا وصمم على أن يضع فيه كتاباً لا يأخذه من أفواه الناس ولا مما قرأ وإنما يأخذه عن عينيه ومشاهداته في العالم، فطاف بهذا العالم ثلاثين سنة ثم وضع كتابه المسمىٰ «المسالك والممالك».

٢ـ **أبوعبدالله محمد بن أحمد المقدسي**: وهو في رأي بعض المستشرقين أعظم الجغرافيين العرب وقد عاش في القرن الرابع الهجري. وكتابه اسمه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» ولكي تعرف ما بذله من جهد، فانظر إليه يحكي طريقته في تأليف كتابه فيقول:

«ثم إنه لم يبق شيءٌ ممَّا يلحق المسافرين إلاَّ وقد أخذتُ منه نصيباً غير الكدية وركوب الكبيرة، فقد تفقَّهتُ وتأدَّبتُ، وتزهَّدت وتعبَّدتُ، وفقَّهتُ وأدَّبتُ، وخطبتُ على المنابر، وأذنت على المنائر. وأممتُ في المساجد، وذكَّرتُ في الجوامع، واختلفتُ إلى المدارس. ودعوتُ في المحافل، وتكلَّمتُ في المجالس. وأكلتُ مع الصوفيَّة الهرائس. ومع الخانقائيِّين الثرائد، ومع النواتيّ العصائد. وطُردتُ في الليالي من المساجد، وسِحْتُ في البراري، وتِهْتُ في الصحاري. وصدقتُ في الورع زماناً، وأكلتُ الحرام عياناً. وصحبت عبَّاد جبل لبنان، وخالطتُ حيناً السلطان. وملكتُ العبيدُ، وحملتُ على رأسي

بالزنبيل. وأشرفتُ مراراً على الغرق، وقُطع على قوافلنا الطرق. وخدمتُ القضاة والكبراء، وخاطبتُ السلاطين والوزراء. وصاحبتُ في الطرق الفسَّاق، وبعت البضائع في الأسواق، وسُجنتُ في الحبوس، وأخذتُ على أني جاسوس، وعاينتُ حرب الروم في الشواني، وضرب النواقيس في الليالي، وجلَّدتُ المصاحف بالكراء، واشتريت الماء بالغلاء، وركبتُ الكنائس والخيول، ومشيتُ في السمائم والثلوج، ونزلتُ في عرصة الملوك بين الأجلَّة، وسكنتُ بين الجهَّال في محلَّة الحاكة، وكم نلتُ العزَّ والرفعة، ودُبّر في قتلي غير مرَّة، وحججتُ وجاورتُ، وغزوتُ ورابطتُ، وشربتُ بمكة من السقاية والسويق، وأكلتُ الخبز والجُلَّبان بالسِيق، ومن ضيافة إبراهيم الخليل، وجُمَّيْز عسقلان السبيل، وكُسيتُ خلع الملوك وأمروا لي بالصلات. وعريتُ وافتقرتُ مرات، وكاتبني السادات، ووبَّخني الأشراف. وعُرضت عليَّ الأوقاف، وخضعتُ للأخلاف، ورُميتُ بالبدع، واتُّهمتُ بالطمع، وأقامني الأمراءُ والقضاة أميناً، ودخلتُ في الوصايا وجُعلتُ وكيلاً، وامتحنتُ الطرَّارين، ورأيت دُوَل العيَّارين. واتبعني الأرذلون، وعاندني الحاسدون، وسُعي بي إلى السلاطين، ودخلتُ حمَّامات طبريَّة، والقلاع الفارسيَّة، ورأيت يوم الفوَّاره، وعيد بَرْبَاره، وبئر بُضَاعَه، وقصر يعقوب وضياعه، ومثل هذا كثير ذكرنا هذا القدر ليعلم الناظر في كتابنا أنَّا لم نصنّفه جزافاً، ولا رتَّبناه مجازاً، ويميزه من غيره. فكم بين مَنْ قاسى هذه الأسباب، وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضعه على السماع. ولقد ذهب لي في هذه

الأسفار فوق عشرة آلاف درهم سوى ما دخل عليَّ من التقصير في أمور الشريعة، ولم يبق رخصة مذهب إلاَّ وقد استعملتُها. قد مسحتُ على القدمين، وصلَّيتُ بمُدْهَامَّتانِ، ونفرتُ قبل الزوال، وصلَّيتُ الفريضة على الدواب، ومع نجاسة فاحشة على الثياب، وترك التسبيح في الركوع والسجود، وسجود السهو قبل التسليم. وجمعتُ بين الصلوات، وقصرتُ لا في سفر الطاعات. غير أنّي لم أخرج عن قول الفقهاء الأئمة، ولم أؤخّر صلاة عن وقتها البتَّة، وما سرت في جادَّة وبيني وبين مدينة عشرة فراسخ فما دونها إلاَّ فارقتُ القافلة وانفتلتُ إليها لأنظرها قديماً، وربَّما اكتريتُ رجالاً يصحبوني، وجعلتُ مسيري في الليل لأرجع إلى رفقائي مع إضاعة المال والهمّ».

٣ـ **أبوعبدالله محمد الإدريسي**: أكبر جغرافيي بلاد المغرب والأندلس. ولد في سَبْتة عام ٤٩٣هـ، ثم رحل في البلاد، في الأندلس والمغرب ومصر، والشام، وآسيا الصغرى، وانتهى به المطاف إلى صقلية. وكان له قدرة فائقة على رسم الخرائط ومعرفة باهرة بالجغرافيا. وألَّف كتاباً اسمه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وله كتاب آخر اسمه «روض الأنس ونزهة النفس» توفى عام ٥٦٢هـ.

٤ـ **زكريا بن محمد القزويني** في القرن السابع الهجري وله كتابان أحدهما اسمه «آثار البلاد» والثاني «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»

٥ـ **ياقوت الحموي**: المتوفى عام ٦٢٦هـ وهو مؤرخ وجغرافي وأديب بارع وله في الجغرافيا كتاب «معجم البلدان». وقد دامت رحلاته لمدة ستة عشر عاماً. وقالت دائرة المعارف الإسلامية عن كتابه: «يعد أكمل

مصنف للمعلومات الجغرافية الوصفية، والفلكية واللغوية. . . . وقد ظل هذا الكتاب هو المرجع الذي يعتمد عليه المستشرقون المحدثون، وكان ياقوت على علم جم بجميع المعارف الجغرافية الإسلامية في عهده».

وقد سافر من بغداد إلى عمان مرات عديدة وترحل إلى الشام ومصر ودمشق وحلب وإربل ثم إلى بلاد فارس فزار خوارزم، ونيسابور ومرو، ثم طاف مدناً كثيرة وعاد إلى الموصل ثم إلى حلب وتوفي بها.

٦ـ **المسعودي**: علي بن الحسين بن علي المسعودي، صاحب كتاب «مروج الذهب» وقد عاش في القرن الرابع الهجري. وقد جاب المحيط الهندي وشواطئه في إفريقية وجزائره الكثيرة، وزار الهند وبلاد الصين وبحر قزوين وآسيا الصغرى والشام ومصر وبلاد العرب.

هذا موجز عن بعض الرحّالة الجغرافيين الذين كان لهم دور بارز وفضل كبير على العالم بأسره.

من أخبار المسافرين (٣٢)

القاضي المالكي

القاضي عبدالوهاب المالكي ـ فقيهٌ، أديبٌ، شاعر مجيد ـ كان يسكن بغداد فتنكرت له ولم تعرف قيمته كعادة البلاد بذوي فضلها، فخلع أهلها، وودَّع ماءها وظلها، واستعد للرحيل منها فخرج معه مجموعة من كبرائها وفضلائها ليودعوه ويشيعوه فقال لهم: لو وجدتُ بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية، ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنيَّة، ثم أنشأ يقول:

سلامٌ على بغداد في كلِّ موطنٍ ... وحُقَّ لها مني سلامٌ مضاعَفُ
فوالله ما فارقتها عن قلىً لها ... وإني بشطّي جانبيها لعارفُ
ولكنّها ضاقت علي بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تضاعِفُ
وكانت كخلٍّ كنتُ أهوى دُنُوَّهُ ... وأخلاقُه تنأى به وتخالفُ

ثم مضى في رحلته واجتاز في طريقه بمعرَّة النعمان، وكان قاصداً مصر، وكان بالمعرة يومئذ أبوالعلاء المعرِّي، الشاعر المشهور فأضافه، وأنشد فيه جملة أبيات منها:

والمالكيُّ ابنُ نصرٍ زار في سفرٍ ... بلادنا فحمدنا النأي والسَّفرا
إذا تفقَّه أحيا مالكاً جَدَلاً ... وينشد الملك الضلِّيل إن شَعَرَا

ـ يقصد امرىء القيس ـ وهكذا استمر هذا المسافر في رحلته المضنية، فتوجه إلى مصر فعلا شأنه هنالك وحمل لواءها، وملأ أرضها وسماءها،

واتَّصل بسادتها وكبرائها، فانهالت عليه الأموال، وحسن به الحال، ولكن هذه الدنيا الدنية لا يدوم صفاؤها ولا يكمل بهاؤها. ففجأة مات لأول ما وصل إلى مصر، وذلك من أَكْلةٍ اشتهاها فأكلها، فكانت نهايته فيها، ويقال إنه قال وهو يتقلب ونَفَسُهُ يتصعَّد:

لا إله إلاَّ الله، إذا عشنا متنا!!!